

## الحكمة والفضيلة

راس روبرتس  
Russ Roberts

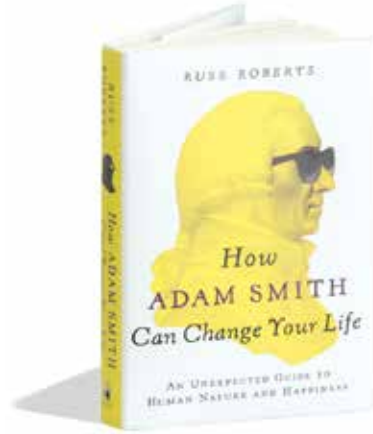
### كيف يستطيع آدم سميث أن يغير حياتك

How Adam Smith Can Change Your Life

### دليل غير متوقع للطبيعة الإنسانية والسعادة

An Unexpected Guide to Human Nature and Happiness

Portfolio/Penguin, New York, 2014, 272 pp., \$27.95 (cloth).



الأخلاقية لسميث على أليات عمل الاقتصاد الحديث، ولكنه أضعف فصول الكتاب.

وتناولت كتب عديدة على مر السنوات «مشكلة آدم سميث» الشهيرة. وهي كيفية التوفيق بين مفهوم الإيثار في كتاب الوجدان الأخلاقي والتركيز على المصلحة الشخصية في كتاب ثروة الأمم. والإجابة المنطقية على هذا السؤال هي أن الكتاب الأخير يركز على الشروط الدنيا للاستفادة من المبادلات السوقية، بينما يركز الكتاب الأول على الركائز الأعمق التي نستند إليها في علاقاتنا الاجتماعية الأوسع.

ووفقا لسن، ركزت أفكار سميث تركيزا ضيقا على عمليات التبادل التجاري، مع تجاهل مفاهيم أخرى على نفس القدر من الأهمية مثل الإنتاج والتوزيع. وحتى في عمليات التبادل السوقي بمعناها الحرفي، قد تغلب المصلحة الشخصية مما يستوجب وجود ثقة متبادلة في أخلاقيات جميع الأطراف المشاركة. وبعبارة أخرى، يجب أن يكون مفهوم الوجدان الأخلاقي حاضرا في جميع العلاقات.

ويأخذ روبرتس في كتابه مسارا مغايرا. فهو يرى أن كتابي سميث يناقشان مجالين مختلفين وغير متداخلين من مجالات التفاعل الإنساني. فاستنادا إلى رأي الاقتصاديين والفيلسوف فريدريك هايك، يقول روبرتس: «علينا أن نعيش في عالمين مختلفين في نفس الوقت للتعامل مع عائلاتنا والخروج إلى دائرة العلاقات التجارية للتعامل مع الغرباء». وهكذا فإن كتاب الوجدان الأخلاقي يتناول مفهوم «الفضاء الشخصي» — أي عالم الأصدقاء والعائلة والمعارف المقربين — بينما يصب كتاب ثروة الأمم أكثر تركيزه على التعاملات بين الأفراد في «عالم الغرباء». عالمان مختلفان وسلوكيات مختلفة.

ومناقشة كتابات سميث من منظور هايك ليست بالأمر المقنع على الإطلاق. ففرض المنظور الفلسفي الضيق لهايك عن العالم على فلسفة سميث يؤثر عليها سلبا، ويختزل إسهاماته في نطاق ضيق للغاية.

وينصب اهتمام سميث الأكبر على الفضيلة — لا سيما الإيثار والشجاعة والوسطية والعدالة والتبصر. وتشير ديردرا مكلوسكي بالفعل إلى أن سميث هو آخر علماء أخلاقيات الفضيلة الذي لحق بركب طويل بدأ بسقراط. وعندما نتكلم عن الفضيلة، فنحن نفكر بطبيعة الحال في ازدهار الحياة الإنسانية في جميع جوانبها.

إجمالا أسلوبا سهلا وجذابا ومقدمة جيدة عن الفلسفة الأخلاقية لآدم سميث. ووفقا لكتاب روبرتس، تتلخص النظرية الأخلاقية لسميث في قواعد حياتية مبسطة: «ابحث عن الحكمة والفضيلة. وتصرف وكأن متفرجا حياديا يراقبك».

وفي حين يتناول الجزء الأول من الكتاب في معظمه مفهوم «التطوير الذاتي» — وهو

## تصرف وكأن متفرجا حياديا يراقبك

مصطلح قديم نوعا ما، يركز الجزء الثاني على كيفية التفاعل بين أفراد المجتمع. ويشير روبرتس في هذا السياق إلى إحدى أهم أفكار سميث — رغم أننا قد نميل بطبيعة الحال إلى تقديم سعادتنا على سعادة غيرنا، فمن الخطأ أن نعيش حياتنا على هذا النحو وأن نلحق الضرر بغيرنا أو نستغلهم لتحقيق مصلحة شخصية. ولكن لماذا؟ لأن المتفرج الحيادي لن يوافق على ذلك — وهو الحكم الأساسي في نظرية سميث الأخلاقية.

وفكرة المتفرج الحيادي كدافع للسلوك الأخلاقي فكرة قوية للغاية. فعلى سبيل المثال، يؤكد عالم الاقتصاد أمارتيا سن، الحائز على جائزة نوبل أن لهذا المنطق البسيط والعملية مزايا كثيرة مقارنة بالمنهج الفلسفي الشائع الذي يركز على نظم العدالة والمؤسسات السليمة. غير أن روبرتس لم يبحث في جميع الانعكاسات الضمنية لطريقة التفكير تلك لأنه يتعامل مع كتاب الوجدان الأخلاقي في الغالب ككتاب عن مساعدة الذات.

ويتناول روبرتس بالفعل في الفصل الأخير من الكتاب انعكاسات الآراء

الأخلاق على ما يبدو إلى دائرة الضوء في علم

الاقتصاد. والسبب دون شك هو الأزمة المالية العالمية التي كشفت عن الكثير من الأنشطة غير القانونية والسلوكيات غير الأخلاقية في القطاع المالي — والتي ترتبت عليها تداعيات كارثية بالنسبة للاقتصاد العالمي وحياة الناس. ولكن يرتبط تجدد التركيز على الأخلاق أيضا بشعور عميق بعدم الرضا إزاء الاقتصاد الحديث الذي يقوم في معظمه على مذهب النفعية والتركيز الضيق على التنمية التكنوقراطية. فليس من قبيل المصادفة أن يزداد عدد من يسعون نحو إيجاد منهج أوسع نطاقا لدراسة الاقتصاد يضم أهم عناصر الفلسفة وعلم النفس والتاريخ — وعدد من يطالبون بذلك أحيانا كحق مشروع لهم.

وفي ظل هذه الأفكار التي تغلب على عالمنا اليوم، فإن الوقت مناسب للغاية لإلقاء نظرة على كتاب يتناول الفلسفة الأخلاقية لآدم سميث. وبالرغم من أن آدم سميث هو مؤسس علم الاقتصاد الحديث، فهو في الأصل أستاذ في الفلسفة الأخلاقية. وإن كان أهم أعماله الفلسفية، وهو نظرية الوجدان الأخلاقي *The Theory of Moral Sentiments*، غير معروف للكثيرين. ويحاول راس روبرتس في كتابه الجديد أن يسد هذه الفجوة ويلقي الضوء على الحكمة الدفينة في هذا العمل الكلاسيكي الذي يجله الكثيرون.

ويكتب روبرتس بروح طفل يبدأ مغامرة جديدة وممتعة كالذي تغلب عليه مشاعر الدهول والتعجب في صباح ليلة عيد الميلاد. فحماسه ينتقل إلى القارئ وهو يصف استغراقه في كتاب لا يستطيع تركه من يده. والكتاب مكتظ بخصص لا تنسى ومقالات قصيرة نابضة بالحياة، ويعكس

فالفيزياء لا تتجزأ وليست فكرة مطلقة غير قابلة للتحويل إلى واقع ملموس. ونظراً لأن روبرتس يرسم في كتابه خطأ رفيعاً بين مختلف مجالات الحياة، فإنه لم يتطرق إلى الانعكاسات الضمنية لفلسفة سميث الأخلاقية على الاقتصاد في الوقت الحالي — وهو ما ينبغي أن يكون مجال اهتمامنا الفعلي. وهو أمر مؤسف لأن أفكار

سميث لها قيمة كبيرة للغاية في الوقت الحالي. فعلى سبيل المثال، ماذا كان المتفرج الحيادي ليقول عن سلوك القطاع المالي في السنوات الأخيرة عندما هيمن الاستهتار والرغبة في تحقيق أرباح سريعة في الأجل القصير على جميع مفاهيم الفيزياء؟ وبوجه أعم، ماذا كان المتفرج الحيادي ليقول عن نموذج نشاط يغلب

أهمية الأرباح في الأجل القصير على الواجبات تجاه الأطراف المعنية مثل العاملين والعلماء والبيئة الطبيعية والمجتمع بوجه عام؟ فهذه هي الأسئلة المهمة التي لم يجب عليها الكتاب.

### أنطوني أنيت

مستشار التغيير المناخي والتنمية القابلة للاستمرار  
معهد الأرض، جامعة كولومبيا

## رأي عابر



نايجل دود  
Nigel Dodd

### الجانب الاجتماعي للنقود The Social Life of Money

Princeton University Press, Princeton, New Jersey, 2014, 456 pp., \$35.00 (cloth).

ما هي النقود؟ هذا ما نكتشفه مع نايجل دود أستاذ علم الاجتماع في كلية لندن للاقتصاد في كتابه «الجانب الاجتماعي للنقود» (The Social Life of Money). ويعرض الكتاب على صفحاته أفكاراً عن النقود لكبار الأدباء والفلاسفة وعلماء الاجتماع وغيرهم من مجالات عديدة. وهذا الكتاب من فئة الأدب الحديث أكثر منه كتاب علمي. فهو يخرج بنا خارج نطاق معتقداتنا التقليدية — لا سيما دارسي الاقتصاد منا — ويضعنا في حيرة من أمرنا متعمداً ترك سؤاله دون إجابة. وينتقل بنا المؤلف من أفكار عن أحد جوانب النقود لشخصيات لا نعتبرهم عادة من أصحاب النظريات النقدية، مثل خورخي لويس بورخيس وجاك دريدا وميشيل فوكو وكيث هارت وفريدريك نيتشه وجان جاك روسو وفريدرياند دي سوسير، إلى مفاهيم مناقضة إلى حد ما ولكنها تعكس أيضاً فهماً متمقناً لطبيعة النقود. ويحاول القارئ أن يفهم جميع هذه

الأفكار والمفاهيم — وهو ليس بالأمر السهل التي يرى دود أنها تقدم جميعها مضموناً ما للقارئ. فطبيعة النقود متغيرة للغاية بحيث لا يمكن التعبير عنها بفكرة واحدة.

ودود في كتابه لا يطرح منظوراً جديداً عن النقود، بل يسعى إلى إطلاعنا على منظورات كثيرة. ومن هذا المنطلق، يهدف دود إلى هدم الفكرة التقليدية عن النقود التي تقول بأنها تقوم على قوانين جامدة لا يفهمها سوى رجال القانون المخضرمين. وبدلاً من ذلك، يذكرنا المؤلف بأن النقود عموماً، والنقود الورقية الصادرة عن الحكومة تحديداً، هي عبارة عن مفهوم اجتماعي. فنحن لا نشك في القيمة الاقتصادية لورقة بقيمة ١٠٠ دولار أمريكي مطبوعة على قطعة من القطن والكتان تبلغ تكلفتها ١٢,٥ سنتاً لأننا نثق أن الحكومة الأمريكية ستفي بالتزاماتها في ضوء قدرتها على فرض ضرائب على مواطنيها ومواردها مدعومة بقوتها العسكرية. فحتى في حالة وجود موارد وفيرة وأشخاص أثرياء، تنهار قيمة النقود إذا غابت الثقة عن المجتمع — مثلما حدث في فنزويلا في عصرنا الحالي، وفي الأرجنتين والبرازيل في عام ١٩٩٠، وفي جمهورية فايمار في عام ١٩٢٣.

ويذكرنا دود أيضاً استناداً إلى آراء جورج زيمل وآخرين أن لا صحة في القول بأن النقود تمثل مطالبة على المجتمع. ولكن له كل الحق في تكرار الإشارة إلى هذه الحقيقة. فلا تزال الفكرة التقليدية عن النقود أنها كانت في الأصل أداة بدائية غير مسجلة في كتب التاريخ تستخدم لزيادة كفاءة عمليات المقايضة. ولكن هذا المفهوم يتجاهل أحداث السرقة وسفك الدماء التي كانت دوماً حاضرة في المجتمعات الأصلية. فقد كان استخدام النقود في الأصل في صورة إتاوات تدفعها الفئات المغلوبة وأرباح من عمليات بيع وشراء العبيد أكثر منها أداة لزيادة كفاءة عمليات التجارة السلمية. فالنقود لم تنشأ لأسباب بريئة.

ويحاول دود طرح أفكار أكثر تعمقاً عن هذا الموضوع. فيشير إلى أن الهيكل الاجتماعي لا

يعني الدولة بالضرورة. فقد يقصد به مجموعة شبكات التبادل الاجتماعية غير المنظمة التي يقوم الأفراد من خلالها بمبادلة عملهم مقابل أجر ما، أو قد يقصد به نظام الدفع غير المركزي المسمى بيتكوين Bitcoin.

ولكن محاولة الإسهاب في الكتاب أجبرت المؤلف في نهاية المطاف على الانحراف عن

## طبيعة النقود متغيرة للاغاية بحيث لا يمكن التعبير عنها بفكرة واحدة.

الموضوع الأصلي. فيشعر القارئ أحياناً مثلاً أن الكاتب يلقي باللوم على النقود بوصفها السبب في وقوع الأزمة المالية العالمية وغيرها من المشكلات التي ظهرت في الآونة الأخيرة. ولكن نظرية النقود كهيكلي اجتماعي تقوم على توقعات أكثر إقناعاً. فهيكلي المجتمع وتنظيم السلطات فيه يخلق حوافز تنشأ عنها دورات الانتعاش وما يتبعها من كساد. وأخذت هذه الحوافز شكل نقود، ولكن كان من الممكن أن تأخذ أي شكل آخر من أشكال القوة. وبالنسبة لنظرية المؤلف عن أن النقود يمكن أن يكون لها وجود خارج الهيكل الاجتماعي، فهي فكرة مفهومة ولكن المؤلف لم يسق حججاً مؤيدة لها. فنظام بيتكوين سيفشل، لأنها عملة رقمية لا تغطيها أي احتياطات، ولكن لأنها غير مدعومة بسلطة جمع الضرائب المخولة للدولة وتتعارض طبيعتها مع القواعد الدولية المنظمة لنشاط مكافحة غسل الأموال. والفكرة الحقيقية التي نستقيها من هذا الكتاب هي أن الشكل يأتي في المرتبة الثانية بعد الهيكل. فإذا كنا نرغب في نقود «أفضل»، فتغيير شكلها لن يكون له أي تأثير يذكر ما لم تتغير الحوافز الراضخة في هيكل المجتمع.

### أفيناش بيرساد

زميل أول غير مقبم  
معهد بيرسون للاقتصاد الدولي